الصرخة

قصة بقلم محمد خضير

كاي وقت بطيء ، تحجزه السحب والوحول ، كطقس اي فجر او ضحى صباح يوم كالايام السابقة ، مطفأ وشاحب ، بلون الرماد او الصخر او الفضة او الالمنيوم العتيق ، ما زالت سماء متماسكة واطئة ، بلون الرماد او الصخر او الفضة او الالمنيوم العتيق ، تمطر منذ خمسة عشر يوما . وكان الجميع قد انسحبوا الى داخل الجدران .

اسود تقفز خلال حلقات نارية . واسود متحفزة للوثوب . واسود اخرى بوجوه بيضاء ولبدات مشعثة تقعي في صف واحد على براميل واطئة متجاورة ، بمواجهة مروضها الذي يمسك بعصا مزخرفة بزخارف شرقية ذات طرفين مختلفين ، طرف على هيئة مدية والطرف الاخر على هيئة عظم . انه يشير الان الى اسد من بين الاسود الجالسة بطرف العصا الذي يشبه المدية . وفي حين تنظر جميع الاسود الى الامام ، يطأطيء ذلك الاسد راسه الى الاسفل ، بينما يلتفت المروض برأسه الى الوراء التفاتة حادة ليواجه جمهورا (غير حاضر الان) بوجه رهيب ، منتصر . ومن خلال قضبان القفص الكبير الذي يضم الاسود ، نرى بهلوانات العقل الطائر المحلقين في انوار خضراء شاحبة . انهم يتراجعون او يهوون ، او يتسمرون باجسامهم السابحة ، وقد حافظوا على اوضاعهم الافقية او العمودية او المائلة في الفراغ الاخضر الشاحب . كما يرتكز مهر ابيض بمؤخرته على كرسي بين خيول اخرى تقف على قوائمها الخلفية . ويحفظ فيل ضخم توازنه على كرة صفراء . وترتقي كلاب او تهبط سلالم متوالية متصلة . وتتجمع طواويس في تشكيلة استعراضية . وحيوانات اخرى صغيرة : قرود ، سناجب ، فئران ، قطط ، وحيوانات اخرى اكثر صغرا ، تقفز او تزحف او تتسلق قفص الاسود . ومن العمق الاخضر ، ينبثق نمر ، قافزا فوق ظهور الحيوانات وبين اجسام البهلوانات السابحة ، مخترقا الانوار ، قادما باتجاه الجمهور (الغائب) .

اختصر ذلك المشهد البانورامي للسيرك ، مرسوما على الواجهة اليسرى لصندوق سيارة نقل كبيرة ، من تلك السيارات التي تستخدم في الدعاية لسيرك متنقل ، تدرج في شارع مقفر ، على مهل .

شارع مستقيم فائض ، خال ، آخر . رذاذ منحرف متواصل ، لا يسمع ، لكنه يلتمع كالابر الدقيقة الطويلة خلال زجاج غرفة قيادة السيارة ويرتطم بالزجاج ويسقط على برك المياه المتجمعة اسفل حافة الرصيف ، على جانبي الشارع . كانت مياه الشارع العكرة ، لا تترك الا خطا ضيقا حيث يرتفع الشارع في الوسط ، وهي تجري منحدرة على جانبي السيارة ، باتجاه الشارع المتراجع المترنح بين ذراعي اللوحة الزجاجية الامامية لغرفة قيادة السيارة المتحركين .

ينبسط الشارع ثم يفرق ، بين الذراعين . تفترق الذراعان فتبرز اعمدة المصابيح ، واعمدة لوحات اشارات المرور ولافتات اتجاهات الطرق ، واسيجة تتسلقها اشجار كثيفة تزحف حتى الارصفة . ثم تفرق تدريجيا . وعندما تعود الذراعان تنكشف في طرفي اللوحة حدائق منخفضة خلف الاسيجة تستقر فيها اراجيح حديد ساكنة واصص مصفوفة . ثم تختفي تدريجيا ايضا . وبذات الحركة المنتظمة ، تمسح الذراعان جدران المنازل ذات الطابق الواحد ، التي تتعرى وتنقع تحت سيول مياه الامطار المنجرفة من الاسطح او من المازيب المتزعزعة والمثقوبة . وما ان تجتاز سيارة السيرك تلك المنازل حتى تنهار في نهر من الرذاذ يتراجع محصورا في مرآتين جانبيتين خارج مقدمة السيارة . وكانت الاشياء المهملة في الشارع تتداعى وتتراجع طافية على المياه . وتنجرف الى الخلف الاعمدة ولافتات المرور والاشجار والحدائق واحواض الزهور والسيارات والشاحنات المعطلة على الارصفة . بينما تتسرب الاشياء الاخرى الى شوارع فرعية ضيقة وازقة محددة بصفوف الاجر وكتل الطين المتعرية ، وبالابواب والنوافذ الرطبة . ان الازقة وهي تتعرج وتنعطف ، تمضي بالعتمة الموحلة ، وبصدأ صفائح القمامة واقفال الابواب وبالاعمدة ، وبانهمار المطر المكتوم في الخشب والجدران ، وبالخلو التام ، وبلون الوحشة الذي يطفو فوق المياه العكرة المشتتة . وتهبط السماء كسقف رصاصي على الاسطح الواطئة .

تنعطف سيارة السيرك ضمن الحدود المبهمة لشارع فائض ، خال، آخر . تلوح اشجار ساكنة باهتة خلف استار ضباب وشراشب مطر مهتزة ، وخلف الواح متعددة من زجاج رقيق يسيل عليها الماء . تدخل السيارة نفقا من الاشجار العالية المبتلة . حدائق غارقة . يلاصق الشارع نهرا واسعا الى جهة اليسار . ويعتلي النهر افقا ضبابيا في البعيد ، عند الضفة غير المرئية من النهر . حدائق ساحلية مشتتة العشب ، تفصلها عن النهر حافة صخرية ، وعن الشارع حافة اخرى ، تتجمع فيها المياه وتغمر قوائم المقاعد الخشبية . كما تتجمع المياه في احواض الاشجار ، على الارصفة . تنحني جذوع هذه الاشجار الرطبة البنية القاتمة وتميل كثيرا ، من جانبي الشارع ، حتى تلتقي قممها الخضراء الشاحبة فوق السيارة ، وتتهشم انعكاساتها الداكنة على مقدمتها . وخلال الجذوع المنحنية تقوم اعمدة مصابيح الكهرباء ، وخلال الجذوع المنحنية واعمدة المصابيح تلوح جذوع اشجار الساحل المستقيمة الضخمة البيضاء التي حفرت عليها التذكارات ، وقد برزت جذورها

المتضافرة وابتعدت عنها لتتدلى في المنخفضات التي حفرتها المياه خلف حافة النهر . وفي النهر تطمس قطرات المطر المتلاحقة انعكاس الاوتاد في صفحة الماء ، وانعكاس القوارب المشدودة الى الاوتاد ، وانعكاس السفن الشراعية والشاحنات الحديدية الكبيرة المهجورة بالقرب من الضفة الصخرية . تشق السيارة طريقها في ممر شجري معتم ، كان يتقهقر في المرآة الجانبية خارج السيارة .

تتقدم الساحرة التي خرجت من النهر ، الى مدخل الغابة الاستوائية الداكنة ، وهي تعزف على ناي ضخم تمسكه بكلتا يديها في وضع افقي يصعب تمييزه من بين الافاعي السود التي تحيط بعنقها وبجسدها العاري الداكن ذي الرأس المفلطح الذي تتالق فيه عينان بالسحر والعزلة . كما يصعب تمييز الافاعي عن الاغصان الكثيفة والاوراق الداكنة الخضرة المدببة المتراكبة على بعضها . يبدو النهر خلف الساحرة متفضنا بمويجات باهتة ، وتحاصر الاشجار المرتفعة فسحة الفضاء فوق النهر . ما ان ينفذ عويل الناي مرتعشا في العمق الموحش ، مصطدما بحافات الاوراق الحادة ، حتى تستيقظ الافاعي من سباتها الطويل وتشرئب برؤوسها وتنزلق من الاغصان ، او تزحف من النهر بين حشائش كثيفة ثم تنهض وتتطاول برؤوسها عندما تصبح بين ساقي الساحرة . حيث ستتوغل الساحرة ، تخترق نداءاتها السحرية الاعماق السوداء الصامتة المعزولة ، سيستمر ذلك العناق البدائي بين الافاعي والساحرة ، وسط اشجار تطبق باوراقها السيفية الحادة والمنبسطة الواسعة والسعفية ، المتراكبة السطوح ، ووسط اوراق عشبية دقيقة تلتوي في العمق الاخضر الساكن وتحيط بازهار مروحية صفراء وازهار كاسية حمراء قرمزية . غير ان الساحرة ما تزال عند مدخل الغابة ، لم تتقدم خطوة واحدة ، حيث ستبقى مويجات النهر الباهتة خلفها على نفس البعد ، وحيث ستبقى الاوراق الداكنة الخضرة المتراكبة المحددة بضوء فسحة الفضاء في الاعلى ، والاوراق الطويلة والازهار الصفراء والبيضاء والاعشاب الكثيفة المحيطة بقدميها في الاسفل ، وحيث ستبقى الافاعي المتاخرة عن الوصول الى جسد الساحرة في تدليها المتوتر حوله ، ساكنة في المنظور الاستوائي الجامد الذي تحتويه اللوحة البدائية المرسومة على الجانب الايمن من صندوق سيارة السيرك ، والمنقولة عن لوحة هنري روسو (ساحرة الافاعي) .

هناك من يتحرك بين الاشجار ويقترب من حافة النهر ، منحنيا على الماء الذي يرتعش . عملاق داكن يرتقي مرتفعا كمن يتهيأ للقفز في النهر . شبح اسود صعد الحافة ، يقف منتفضا تحت الاشجار وينظر للنهر الذي غادره ، لم يكن الا تمثالا صخريا داكنا ضخما على منصة من الرخام لشخص يدير ظهره للشارع ويبسط كفا ممدودة على النهر ، مشيرا بها الى القوارب المهجورة ، المربوطة اسفله الى اوتاد متآكلة لا ترتفع كثيرا فوق الماء . للتمثال ساقان فارعتان دقيقتان ترفعانه الى علو شاهق ، تتقدم احداهما على الاخرى ، منحنيتين قليلا ، والساق الامامية اكثر انحناء، تبرزان التمثال في وضع وكأنه سيخطو خطوة واسعة تضع القدم الامامية وسط القوارب ، وتضع الخطوة الثانية القدم الخلفية في الماء وسط النهر ، والخطوة الثالثة ستطوح بالقدم الامامية الى الضفة الاخرى غير المرئية ، والخطوة الرابعة ستنقل التمثال ليهبط في الضباب البعيد . ان الشخص يحني ظهره وينكس رأسه الصغير الشاهق نحو الماء في الاسفل ، نحو القوارب المهجورة المرصوفة . وان ثقوبا داكنة ذات حافات متآكلة ، اكثر ما تنتشر حول قدميه وذراعيه الممدودة ، تمتص مياه المطر . وليست للتمثال يد ثانية ، ربما لانها تآكلت تماما .

وها ان التمثال يقفز من منصته ، عندما اجتازته سيارة السيرك. يخطو الخطوة الواسعة الاولى وسط القوارب ، وتهوي ذراعه الطويلة على القوارب المشتتة . ثم تتصاعد من النهر اعمدة دخان . انه يقف في النهر ، تغادر طيور مبتلة مضببة ثقوب كتلته الحجرية وتحلق حول هامته الضئيلة . اما الخطوة الثانية فللشارع ، تتبعه الطيور التي توالي الخروج من ثقوبه . يعدو التمثال خلف السيارة ، مترنحا الى اليمين والى اليسار ، ويصطدم باعمدة المصابيح وبجذوع الاشجار . الخطوة الثالثة للنهر ، فيما يستمر تآكل ساقيه وتناخرهما . يختفي التمثال فجأة ، عندما تنعطف السيارة ، ويكف عن الانعكاس في مرآتي السيارة الجانبيتين (خطوة هائلة عبر النهر ، نهر المرآتين) .

في نهاية ممر الاشجار ، لم يقد شارع فرعي الا لشبكة من الشوارع الفرعية القصيرة المتقاطعة المتشابهة . انها شوارع متساوية في الاتساع معبدة نظيفة ، محددة باسيجة واطئة من الاجر الخشن ، ذات بناء مضطرب . ففي حين تبرز صفوف من الاجر ، تنخفض صفوف اخرى ، او تبرز آجرات متفرقة بروزا كبيرا ، في هذه الاسيجة ، التي تحصر مساحات واسعة من تلال القمامة ـ فضلات ، رماد ، ونفايات محروقة ـ وقد تماسكت تحت المطر ، يرتفع بعضها فوق مستوى الاسيجة ، وبعضها تكوّن حديثا ، متفرقة ، او متصلة تملأ المساحات وتتبعثر من فتحات في الاسيجة . الشوارع الخالية المفسولة ، المنعطفات مفارق الشوارع القصيرة المستقيمة ، تلال القمامة ، الرذاذ المائل ، السماء الواطئة ، تطارد السيارة في المرآتين الجانبيتين خارج السيارة او تتخلف ساكنة في اماكنها ، او تختفي بعد حين لتظهر ثانية فتواجه السيارة من امام في شارع اخر . تعثر السيارة على طريق راسي يتوغل مستقيما ويقاطع شوارع مستقيمة افقية متوازية . وفي احدى نقاط التقاطع تعترض السيارة براميل مصبوغة باللونين الابيض والاسود ، فتستدير في شارع افقي . غير ان براميل اخرى مصبوغة باللونين الابيض والاسود تأخذ في اعتراض السيارة عند تقاطعات الطرق ، مما يضطرها الى الاستدارة يمينا او يسارا في شوارع افقية قصيرة متقاطعة مع شوارع عمودية قصيرة متوازية . لقد وضعت البراميل بحيث تمنع اية سيارة من السير في اتجاه واحد لمسافة طويلة ، وكي تضللها فلا تسير الا في نفس الطرق المتشابهة رواحا ومجيئا ، فلا تتقدم وانما تدور حول مساحات القمامة المسيجة . وعند المنعطفات ، كانت تظهر لوحات اشارات مرور دائرية او مثلثة الشكل تشير الى وجود مدارس ومستشفيات وسكك حديد وجسور ، مع انه ليس هنا اي بناء يدل على وجودها . وربما تشير بعض هذه اللوحات الى سجون وملاجىء ومنشآت مزعومة . ولوحات اخرى رسمت عليها اقفال وسلاسل ومعاول ورموز خاصة اخرى ، كانت تشير الى اغراض مجهولة . وكانت البراميل المعترضة تسد معظم مفارق الطرق ، ولا بد من ازاحتها كي تخرج السيارة من شبكة الطرق المضللة . تنقلب البراميل وتتدحرج ما ان تصدمها مقدمة السيارة ، ذلك لانها براميل فارغة ، فيتمهد للسيارة شارع مستقيم ، دون عائق .

اخيرا ، تندفع سيارة السيرك في طريق خارجي ، تحمل قرودا .. قرودا ضئيلة الحجوم ، محبوسة في قفص كبير ذي فتحات واسعة، يشتتها ذعر مجهول ، لعله شعاع ضوء قوي مسلط على القفص من الخلف او من الاعلى ، فهي تتسلق فتحات القفص وتنتشر في ارجائه . اكثر تلك القرود تتجمع في الجانب الخلفي من القفص ، تنغمر في الشعاع ، وقسم منها يتدلى من سقف القفص . ولانها في غاية الانفعال والهياج ، فهي تدير رؤوسها وتتلفت الى بعضها او تحدق الى الاسفل بحدقات واسعة ذاهلة ، وتفتح اشداقها ، كما لو تطلق الصرخات ، وتطوح بذيولها الطويلة فتشتبك او تنحشر في فتحات القفص . غير ان اربعة قرود او خمسة ، تدير ظهورها الى جهة الشعاع ، استمرت في هدوئها ، متعلقة بواجهة القفص الامامية ، دون ان تحجب بقية القرود الهائجة في قعر القفص . انها تنظر الى اعمدة الشارع التي تتراجع ساحبة معها اسلاكها ، والى خلاء منخفض الارض الشاسع على جانبي الشارع ، وقد انتشرت فيه المستنقعات الملحية ، واكوام من التراب

البني المتماسك ، والى السماء الرمادية المتماسكة . كانت لكل من هذه القرود حدقتان واسعتان مستديرتان متقاربتان جدا ، يحيط ببياضهما الواسع بنقطتين سوداوين صغيرتين ، وتحتلان معظم وجوهها الصغيرة المسطحة المتجاورة . وعندما تبتعد سيارة السيرك بهذه القـــرود ، المرسومة على كل الواجهة الخلفية ، فانها تلوح من بعيد وكانها قطط او جرذان سوداء تتجمع عند حافة صندوق السيارة . وعندما تخـوض عجلات السيارة المسرعة برك المياه المتجمعة في الطريق تلطم الميـــاه المتصاعدة وجوه حيوانات مشهد السيرك على واجهة الصندوق اليسرى، وساحرة الافاعي على واجهته اليمنى ، كما تسيل قطرات متفرقة عكرة على وجوه القرود الجامدة في الواجهة الخلفية للصندوق الكبير .

يمضي الطريق الى امام ، دون ان تظهر له نهاية : ففي نقطة بعيدة يخترق ضبابا ، او جبالا رمادية تتصل بالسماء ، وسط خلاء منبسط شاسع ، من الصعب تمييز الحدود التي يتصل عندها بالسماء . وعندما تلتحم نهايات الارض بالسماء ، تظهر عدة طرق قصيرة وطويلة باهتة في الارض او في السماء ، تبدأ من نقطة ما ، من منخفض او مرتفع رماديين ، وتنتهي في منخفض او مرتفع رماديين . كما تشحب حواجز واسوار عند النهايات الضائعة بين الارض والسماء ، وتنفصل عن الارض جزر وكتل كروية وبيضوية بلون الملح وتحلق في الخلاء الشاسع . وبعيدا جدا ، مرتفعات تنهار ، وشلالات تنصب ، ومواعين تنقذف .

وهنا ، تنحرف سيارة السيرك وتغادر هذا الطريق الفضائي ، لتدخل بوابة من دعامات حديد قائمة بين اسلاك شائكة تحدد مساحة واسعة ينتشر في نواحيها حطام حديد : سيارات محطمة ، اجزاء مـــن آلات ومكائن ، قضبان وانابيب وبراميل وصفائح يعلوها الصدأ . صفت البراميل والصفائح المنبعجة الملطخة بالقار بمحاذاة الاسلاك الشائكة ، كما صفت لتحدد ممرات متعرجة داخل الحطام ، ممهدة بالرمل المخلوط بالحصى وفتات الصخور . تسير السيارة ببطء في ممر رئيسي من هذه الممرات وتنفلت من تحت عجلاتها حصوات وقطع صخور ترتطم بالبراميل او تنقذف عبر البراميل لتستقر بين هياكل السيارات . تنفتح بيـن الحطام فجوات ضيقة اكثر دكنة ، تنحدر اليها قطرات المطر السائلة على اشلاء الحديد ، كما يحيط الحطام بفجوات اوسع القيت فيها قطع حديد صغيرة اكثر صدأ ، وفي فجوات اخرى قطع اكثر تلفا . امـــا الممرات الفرعية ، فتنتهي في فسحات اكثر اتساعا . وكانت سيـــارة السيرك وهي تسير في هذه الممرات الفرعية الضيقة تزيح البراميل بعيدا بمقدمتها او بجانبيها ، وحين يتدحرج احد هذه البراميل الى وسط الممر ، تجرفه السيارة بمقدمتها ، كي تشق طريقا الى فسحة مناسبة تركن اليها .

تفاجيء السيارة ، في فسحة محصورة بين جدران مرتفعة مـــن البراميل ، كتلة صغيرة مكورة ، صقيلة لامعة ، تنزلق عليها قطرات المطر كما تنزلق على سطح زيتي . لم تكن الكتلة الصقيلة لتتميز عن قطع الحديد ، لولا تلك الحركة البطيئة التي بدأت تدب في اطراف قصيرة اخذت تبتعد عن الكتلة لتلامس الارض ، اعتمدت عليها الكتلة في تراجعها البطيء الى الخلف ، ازاء زحف السيارة البطيء ايضا باتجاهها حتى تختفي كليا داخل فتحة اسفل جدار البراميل .

يطول اختفاء الكتلة ، فتطلق السيارة نفيرا قويا ، ياخذ في التردد عميقا وطويلا بين حطام الحديد . موجات اخرى من النفير الثاقـــب تخترق جدران البراميل وتتغلغل في تجاويف الحطام ، لتطرد الصمت الصديء المترسب ، ولتنتزع الكائن الصغير ، المأخوذ ، من جحره .

يطل راس مكور أملس ، يتطلع بثقبين ضائعين اسفل جبهة صفراء عريضة ناتئة ، في وجه اصفر ينعكس عليه لون صدأ الحديد ، وتعلق به حبيبات رمل . ثم يظهر الجزء الباقي ، عاريا . تمكث الكتلة الحية ، التي تشبه حيوانا او طفلا بشريا ، في الفتحة قليلا ، ثم تزحف بحذر الى الفسحة ، بواسطة قوائمها القصيرة ، وتستقر على قاعدتها لفترة وجيزة ، متوفزة ، ثم منتفضة حين تعاود السيارة اطلاق نفيرها الكاسح نفير متواصل ، يقاطعه الكائن الذي يشبه حيوانا او طفلا بشريا بصرخة طويلة حادة . ويتضح لهذا الكائن فم : شق واسع داكن اسفل راســـه الاملس المكور . فم يصرخ .

الفم الذي يصرخ جوف عميق ، جوف في عمق صدأ الحديد ، يجتذب السماء المنجرفة بين ممرات الحطام ، كما تنسحب اليه الاشلاء والقضبان ، التي ستلتفظ ثانية صرخات تتولول من برميل الى برميل ومن فسحة الى فسحة . صرخات تنبثق من الظلمات ، ستتمسخ رؤوسا مكورة صقيلة بلون الحديد ، تشبه الرأس الذي يلفظها . يقدم الرأس ـ الصرخة ، الذي تشكل في الاعماق صغيرا واخذ ينمو فيما هو يقترب رويدا رويدا ، وما ان يصل حافة الفم حتى يكتمل ويصبح توأما للرأس الاصلي . لن يقاوم الرأس الجديد طويلا ، فهو ما يكاد يلامس الهواء حتى يتموج متمددا ، آخذا في الانتشار ثم الذوبان فالتلاشي في الفضاء كدخان ... وقبل ان يختفي تماما ، يكون الرأس التوأم التالي القادم من الجوف الحديدي المظلم ، قد اقترب من حافة الفم مسرعا ، صارخا . هكذا تستمر الرؤوس المتشابهة في التوالد السريع ثم الاختفاء المتموج، حتى بعد انقطاع نفير السيارة .

تتراجع سيارة السيرك ، بوحوشها ، فتصطدم بجدار مـــن البراميل مرتفع . تنهار البراميل ، وتتراكم حول السيارة . وتستمر البراميل تتساقط جزءا بعد جزء حتى تغطي صندوق السيارة الكبير .

ولقد انقطعت الصرخات . وما يزال المطر يهطل ، رذاذا منحرفا ، وتسيل قطراته على البراميل المنهارة ، وعلى اشلاء الحديد .

البصرة (العراق) **محمد خضير**

« دار الآداب تقـدم »

مؤلفات كولن ولسون

الشـــك	ترجمة يوسف شروروعمر يمق	٥٠٠
ضيـــاع في سوهو	ترجمة يوسف شروروعمر يمق	٤٠٠
طقوس في الظلام	ترجمة فاروق محمد يوسف	٧٥٠
القفص الزجاجي	ترجمة سامي خشبة	٦٠٠
اللامنتمـــي	ترجمة أنيس زكي حسن	٥٠٠
مابعد اللامنتمي	ترجمة يوسف شروروسمير كتاب	٤٥٠
سقوط الحضارة	ترجمة أنيس زكي حسن	٦٥٠
رحلة نحو البداية	ترجمة سامي خشبة	٩٠٠
المعقول واللامعقول في الادب الحديث	ترجمة أنيس زكي حسن	٥٥٠
اصول الدافع الجنسي	ترجمة شروروسمير كتاب	٦٥٠